



نصيحة النقاش للجاحظ

صَحَبَنِي مَحْفُوظُ النَّقَّاشِ مِنْ مَسْجِدِ الْجَامِعِ لَيْلًا. فَلَمَّا صِرْتُ قُرْبَ مَنْزِلِهِ - وَكَانَ مَنْزِلُهُ أَقْرَبَ إِلَى مَسْجِدِ الْجَامِعِ مِنْ مَنْزِلِي - سَأَلَنِي أَنْ أُبَيِّتَ عِنْدَهُ.

وَقَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ فِي هَذَا الْمَطَرِ وَالْبَرْدِ وَمَنْزِلِي مَنْزِلُكَ وَأَنْتَ فِي ظُلْمَةٍ وَلَيْسَ مَعَكَ نَارٌ وَعِنْدِي لَبَأٌ لَمْ يَرِ النَّاسُ مِثْلَهُ وَتَمَّ نَاهِيكَ بِهِ جَوْدَةٌ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ.

فَمَلْتُ مَعَهُ فَأَبْطَأَ سَاعَةً. ثُمَّ جَاءَنِي بِجَامٍ لَبِئًا وَطَبِقٍ تَمَّرٍ. فَلَمَّا مَدَدْتُ قَالَ: يَا أَبَا عَثْمَانَ إِنَّهُ لَبَأٌ غَلِيظٌ وَهُوَ اللَّيْلُ وَرُكُودُهُ، ثُمَّ لَيْلَةٌ مَطَرٍ وَرُطُوبَةٍ وَأَنْتَ رَجُلٌ قَدْ طَعَنْتَ فِي السَّنِّ. وَلَمْ تَزَلْ تَشْكُو مِنَ الْفَالِجِ طَرَفًا. وَمَا زَالَ الْغَلِيلُ يُسْرِعُ إِلَيْكَ. وَأَنْتَ فِي الْأَصْلِ لَسْتَ بِصَاحِبِ عَشَاءٍ. فَإِنْ أَكَلْتَ اللَّبَأَ وَلَمْ تُبَالِغْ كُنْتَ لَا آكِلًا وَلَا تَارِكًا وَحَرَشْتُ طِبَاعَكَ.

ثُمَّ قَطَعْتَ الْأَكْلَ أَشْهَى مَا كَانَ إِلَيْكَ. وَإِنْ بِالْعَتِّ بِنْتًا فِي لَيْلَةٍ سُوءٍ مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِأَمْرِكَ وَلَمْ نُعِدَّ لَكَ نَبِيذًا وَلَا عَسَلًا. وَإِنَّمَا قُلْتُ هَذَا الْكَلَامَ لِيَلَّا تَقُولَ غَدًا: كَانَ وَكَانَ وَاللَّهِ وَقَدْ وَقَعْتُ بَيْنَ نَابِي أَسَدٍ، لِأَنِّي لَوْ لَمْ أَجِئِكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ لَكَ قُلْتُ: بِخَلِّ بِهِ وَبِدَا لَهُ فِيهِ. وَإِنْ جِئْتَ بِهِ وَلَمْ أَحْذَرَكَ مِنْهُ وَلَمْ أُذَكِّرْكَ كُلَّ مَا عَلَيْكَ فِيهِ قُلْتُ: لَمْ يَشْفُقْ عَلَيَّ وَلَمْ يَنْصَحْ. فَقَدْ بَرِئْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَإِنْ شِئْتَ فَأَكَلْهُ وَمَوْتُهُ وَإِنْ شِئْتَ فَبَعْضُ الْإِحْتِمَالِ وَتَوَمُّ عَلَى سَلَامَةٍ.

فَمَا ضَحِكْتُ قَطُّ كَضَحِكِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ. وَلَقَدْ أَكَلْتُهُ جَمِيعًا فَمَا هَضُمَهُ إِلَّا الضُّحْكَ وَالنَّشَاطَ وَالسَّرُورَ فِيهَا أَظُنُّ. وَلَوْ كَانَ مَعِي مَنْ يَفْهَمُ طِيبَ مَا تَكَلَّمُ بِهِ لِأَنِّي عَلَى الضُّحِكِ أَوْ لَقَضَى عَلَيَّ. وَلَكِنْ ضَحِكُ مَنْ كَانَ وَحْدَهُ لَا يَكُونُ عَلَى شَطْرِ مُشَارَكَةِ الْأَصْحَابِ.

Câhiz, el-Buhalâ, Tah. İsmail el-Yûsuf, Dîmaşk, thsz., s. 151-152.